



لو كتبت مقالتي هذه للتعليق على اتفاق إيران والخمسة + 1، ولما تهـب «عاصفة الحزم»، لكتبت مقالة محبطـة تعـبر عن رأـي سعودي محـبطـ، ربما تكون أـيضاً استـسلامـية تـتدـثر بـواقعـية الأمر الواقعـ، أو غـاضـبة نـاقـمة من ضـعـفـنا نـتـيـجة لـخـبـطـة الأولـويـات فـانـصـرـفـنا عـنـ التـهـديـاتـ الحـقـيقـيةـ إـلـىـ خـلـافـاتـ تـافـهـةـ.

ولـكـنـنيـ أـكـتبـهاـ الآـنـ بيـنـماـ أـسـتـمعـ للـعمـيدـ أـحـمـدـ عـسـيرـيـ النـاطـقـ باـسـمـ الـقوـاتـ الـمـسـلـحةـ السـعـودـيـةـ الـتـيـ تـقـودـ تحـالـفـ «ـعـاصـفةـ الحـزمـ»ـ الـهـادـفـ إـلـىـ تـقـلـيمـ أـظـافـرـ إـيرـانـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ،ـ وـهـوـ يـقـولـ بـثـقـةـ:ـ «ـإـذـاـ كـانـ هـنـاكـ مـسـتـشـارـوـنـ إـيرـانيـوـنـ أـوـ مـنـ «ـحـزـبـ اللهـ»ـ مـعـ الـحـوـثـيـيـنـ فـسـيـلـقـوـنـ الـمـصـبـرـ نـفـسـهـ»ـ.ـ إـذـاـ لـاـ مـكـانـ فـيـ الـيـمـنـ الآـنــ وـبـالـتـالـيـ غـيـرـهـاـ مـنـ بـلـادـ الـعـرـبـ لـاحـفاـًــ لـمـسـتـشـارـيـنـ إـيرـانـيـيـنـ أـوـ مـنـ يـتـبعـونـهاـ مـنـ مـيـلـيشـيـاـ يـقـتـلـوـنـ وـيـخـيـفـوـنـ وـيـفـرـضـوـنـ رـؤـيـتـهـمـ الطـائـفـيـةـ عـلـىـ مـسـتـقـبـلـ الـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ،ـ وـبـالـتـالـيـ لـمـ أـعـدـ أـشـعـرـ بـاـهـتـمـامـ شـدـيدـ إـنـ تـوـصـلـ الـأـمـيرـكـيـوـنـ وـالـأـورـبـيـوـنـ إـلـىـ اـتـفـاقـ مـعـ إـيرـانـ يـعـطـيـهـاـ الـحـقـ بـالـاسـتـمرـارـ بـمـشـرـوـعـهاـ الـنـوـوـيـ «ـالـسـلـمـيـ»ـ وـيـرـفـعـ عـنـهاـ عـقـوبـاتـ كـلـيـاـ أـوـ جـزـئـيـاـ أـمـ لـمـ يـتـفـقـواـ.

فالـذـيـ يـشـغـلـنـيـ بـصـفـتـيـ مواـطـنـاـ سـعـودـيـاـ هوـ هـذـاـ التـمـدـ الإـيرـانـيـ،ـ الـذـيـ يـهـدـدـ أـمـنـاـ الإـقـلـيمـيـ وـالـمـلـحـليـ،ـ وـيـغـيـرـ هـوـيـتـنـاـ بـالـقـوـةـ وـالـتـخـوـيفـ،ـ وـيـصـادـمـ تـطـلـعـاتـ شـعـوبـ الـمـنـطـقـةـ إـلـىـ السـلـامـ وـالـحـرـيـةـ وـالـحـقـ فـيـ الـاـخـتـيـارـ.ـ لـقـدـ فـشـلـتـ إـيرـانـ فـيـ كـلـ الـمـبـادـئـ الـتـيـ أـعـلـنـتـهـاـ ثـورـتـهاـ إـلـاسـلـامـيـةـ بـأـنـهـاـ مـعـ الـمـسـتـضـعـفـيـنـ وـالـوـحـدـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ وـالـحـرـيـةـ.ـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـقـفـواـ مـعـ دـيـكـتـاتـورـ،ـ وـفـيـ الـعـرـاقـ اـصـطـفـواـ طـائـفـيـاـ،ـ وـفـيـ الـيـمـنـ كـذـلـكـ وـخـطـطـوـاـ لـانـقلـابـ يـفـرـضـ فـصـيـلـاـ بـالـقـوـةـ عـلـىـ كـلـ اـخـتـيـارـاتـ الـشـعـبـ.ـ الـمـؤـلـمـ أـنـهـمـ بـدـوـاـ،ـ وـطـوـالـ عـقـدـ كـاـمـلـ،ـ مـاـضـيـنـ مـنـ نـجـاحـ إـلـىـ آـخـرـ،ـ وـالـعـالـمـ يـعـجـبـ بـالـنـاجـحـيـنـ وـالـمـنـتـصـرـيـنـ حـتـىـ لـوـ لـمـ يـحـبـهـمـ،ـ كـهـذـاـ بـدـتـ تـعـليـقـاتـ بـعـضـ الـمـحـالـيـنـ السـيـاسـيـيـنـ الـأـمـيرـكـيـيـنـ وـهـمـ يـدـعـوـنـ إـلـىـ صـفـحةـ جـدـيـدةـ مـعـ إـيرـانـ.

إـنـهـ الـقـوـةـ الصـاعـدـةـ،ـ الـتـيـ تـقـولـ وـتـفـعـلـ،ـ وـيـمـكـنـ الـاعـتمـادـ عـلـيـهـاـ فـيـ الـحـربـ عـلـىـ «ـدـاعـشـ»ـ وـالـإـرـهـابـ،ـ وـإـعادـةـ الـاستـقـرارـ إـلـىـ الـمـنـطـقـةـ.ـ لـاـ يـزالـ فـيـ أـمـيرـكـاـ مـنـ يـرـىـ الـمـنـطـقـةـ بـمـنـظـارـيـنـ فـقـطـ:ـ مـحـطةـ الـنـفـطـ،ـ وـأـمـنـ إـسـرـائـيلـ،ـ فـكـانـ هـذـانـ هـمـاـ مـحـركـ الـتـفـاوـضـ معـ الـإـيرـانـيـيـنـ فـيـ مـفـاـوـضـاتـ جـنـيـفـ وـالـآنـ لـوزـانـ،ـ يـرـونـ فـيـ رـفـعـ الـعـقـوبـاتـ عـنـ إـيرـانـ مـاـ يـحـولـهـ إـلـىـ شـرـيكـ اـقـتصـاديـ،ـ تـفـرـكـ الـشـرـكـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ أـيـدـيـهـاـ وـهـيـ تـقـرـأـ درـاسـاتـ الـفـرـصـ الـاـقـتصـادـيـةـ الـمـقـبـلـةـ بـعـدـ خـرـوجـ هـذـاـ جـنـيـ الـاـقـتصـادـيـ الـإـيرـانـيـ مـنـ قـمـقـ الـعـقـوبـاتـ،ـ أـمـاـ إـسـرـائـيلـ فـإـنـ الشـرـوطـ الـتـيـ سـتـضـعـهـاـ الـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ عـلـىـ الـمـشـرـوـعـ الـنـوـوـيـ الـإـيرـانـيـ كـافـيـةـ لـجـعلـهـ سـلـمـيـاـ،ـ مـعـ

بقاء خيار العقاب العسكري لإسرائيل والولايات المتحدة لو ثبت لها أن إيران تخاللها وتمضي في مشروع سري لتصنيع قنبلة نووية. التطوير بات مسألة من الماضي، إذ يجمع الخبراء أن إيران تمتلك اليوم المعرفة والتقنية الكافية. أما العرب وأهل الخليج، يسأل الأميركي، فأين سينذهبون؟ لا خيار لديهم غير قبول الأمر الواقع والاستمرار في تصدير مزيد من النفط وشراء مزيد من الأسلحة!

لقد تجاهل المزاج الأميركي كل أسباب القلق السعودي من التمدد الإيراني. كانوا يتعاملون معنا بمنطق «هذه مشكلاتكم الطائفية القديمة التي لم تستطعوا حسمها خلال ألف عام، فلا تشغلوна بها». لم يلتقطوا بشكل جاد إلى كل الانتهاكات الإيرانية لمبادئ القانون الدولي وقواعد حسن الجوار، لم يفهموا تغلغل الإيرانيين في الأجهزة الأمنية العراقية حتى أصبحت تدار من طهران مباشرة، ولا دخول آلاف الإيرانيين وميليشيات طائفية يجلبونها حتى من أفغانستان إلى سوريا لقتل سوريين يريدون الحرية والخلاص من الديكتاتور، لم يتحركوا لمنع «حزب الله» من أن يرسل رجاله وأسلحته إلى سوريا، وهو وفق أي تعريف قانوني لا يمكن إلا أن يكون قوة عسكرية مارقة خارجة على سلطة الدولة اللبنانية.

لم يوقفوا طائرة إيرانية واحدة يعلمون أنها محملة بأحدث أنواع الأسلحة وهي تتجه إلى سوريا، حيث منطقة صراع أعلنوا غير مرة منفردين أو من خلال الأمم المتحدة بضرورة حظر الأسلحة عنها، وكذلك إلى اليمن، حيث السفن تنقل الأسلحة، وطائرات إلى صناعة تحمل مستشارين ومدربي، وربما مزيداً من المتعصبين الشيعة الذين احترفوا القتل الطائفي في العراق وسوريا. تعلم الأميركي أن كل هذا يهدد الأمن القومي لحليفتها السعودية، ولكنها ببساطة اكتفت بسحب جنودها من قاعدة العند القريبة من عدن بعدما بدا أن الحوثيين على وشك أن يطبقوا عليها، ومضوا بعيداً بلا مبالاة عجيبة.

قبل نحو العامين، كنت في إسطنبول مشاركاً في إحدى دورات المنتدى الاقتصادي العالمي، في حلقة حوار عن التهديدات الأمنية في المنطقة. قلت، إن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية سقوط عشرات الآلاف في سوريا، بقدر لا يقل عن روسيا والصين اللتين صوتتا بالفيتو أكثر من مرة لمنع التدخل هناك، فأميركا أيضاً تمنع السعودية وتركيا وقطر من توفير أسلحة نوعية للمعارضة السورية، أهمها الصواريخ الحرارية التي كان يمكن أن تحد من قدرة الطيران السوري الذي استمرا، بعدما أمن العقاب، قصف المدنيين في المناطق المحررة لأهداف عقابية وليس عسكرية. بدا كلامي مزعجاً لباحث الأميركي مشارك متخصص في الشؤون الدفاعية وصديق مفترض للملكة، فقال بحدة «أنتم ليكم طائرات إف 16 وسلاحكم الجوي أقوى بمراحل من القوات الجوية السورية، لم لا تأخذون زمام المبادرة؟».

سكتُ على مضمض، ذلك أنني كنت معتقداً أننا لا نستطيع فعل ذلك من دون غطاء دولي، وتحديداً الأميركي، بل حصلت على معلومات وقتها تؤكد من الأميركيين السعوديين وقطر من إرسال شحنة صواريخ «مان باد» الحرارية للسوريين كان يمكن أن تغير موازين المعركة وتتنفذ أرواحاً كثيرة.

من الواضح أن هذا العجز هو خبر من ماض سحيق، فقد دفعتنا «عاصفة الحزم»، وخلال 10 أيام فقط ومعنا كل المنطقة، إلى مستقبل مختلف متقدم بأعوام عدة.

بالتالي لم يعد مهماً أوقعوا أم لم يوقعوا، سالمو إيران أم حاربوها، المهم أن المملكة استعادت الزمام لنفسها والمنطقة، فبدت ماضية في مشروعين مهمين: الأول سحب البساط بالكامل من تحت أرجل إيران في حيزنا العربي، والثاني لا يقل أهمية، إذ أكد لي مصدر مطلع أن سياسة المملكة حيال الطاقة النووية ستختلف تماماً فور توقيع أي عقد مع إيران، فكل ما ستحصل عليه من الدول الكبرى من منشآت وتقنيات والمقدار المسموح به لتخصيب اليورانيوم وعدد أجهزة الطرد المركزي ستعتبره المملكة حقاً لها أيضاً تسعى من خلاله لتطوير برنامجها النووي.

إنه توازن القوى الذي يضمن السلام من حماقات مغامر يريد إعادة صوغ التاريخ والجغرافيا.

الحياة اللندنية

المصادر: